خـــاتمـــة

يسعى الشعر الصوفي إلى نقل تجربته ومعاناته التأملية الداخلية والمجردة، والتي تجري داخل الذات ليصف أحوالها وهي تفكر في الوجود بأركانه(المكوِّن ، والمكوَّن، والكون)، وفي طريق الوصول إلى المُوجِدْ وهي عملية الاستبطان النفسي التي يقوم بها الصوفي ليمارس من خلالها الحياة وعلاقاته بالوجود والحقيقة عموما.

وإن تجربة الصوفي هذه لا تسير في خط مستقيم متواصل بل تنتقل بالحياة الصوفية عبر وثبات ونقلات متقطعة بحثا عن تفسير وتحليل لهذه الذات المعقدة التركيب، وما يحيط به من هيولات وأكوان.. فيختار الصوفي إذن أن يبوح بكل تلك الهواجس بطقوسه الخاصة والتي تشكل الكتابة أحد مظاهرها. إن النونية -باعتبارها كتابة صوفية من الدرجة الأولى- جاءت لتصوغ كل تلك الهواجس الصوفية في قالب فني شعري مما شكل نتائج هذه الدراسة في محورين أساسين هما:

أولا: النتائج الفكرية والفلسفية: إن القصيدة الصوفية تفرض فكرا معينا، يكون بمثابة الخيط الذي يشد به الشاعر حبات القصيدة أو أبياتها، فالشاعر الصوفي لا يتكلم عن الخمر- مثلا- من وازع التعبير عن مكنونات الذات وترجمتها عن طريق أسلوب شعري معين مثل ما يفعل الشاعر العادي، بل إنه - وهو يعبر عن شيء ما- يختفي وراء فلسفة صوفية معينة، تحرك وترسم مسار تعبيره هذا. هذا بالنسبة إلى الشعر الصوفي الوجداني، فكيف الحال إذا ما تعلق الأمر بقصيدة تحكي حياة فكرية لصوفي، وترسم مذهبه الفلسفي! فإن هذا ما يستدعي بالضرورة ترتيب ورصف وتحليل هذه الأفكار – أو أهمها- كما يلي:

1- إذا كان من مطالب التصوف الأولى نبذ الواقع الحسي، للعروج إلى العالم الروحاني، فإن أهم عنصر يشكل هذا الطلب هو رفض العقل وتفنيد أحكامه وتكذيب منطقه لتحقيق غاية الصوفي، والمتمثلة أساسا إلى الوصول على الحقيقة التي يعتقدونها(الوصول والاتحاد بالحضرة الإلهية)، ويتم استبدال هذه القوة العقلية بقوة تجابهها، إذ ينحو الصوفي منحى تأمليا قائما على الرؤية القلبية والإدراك الحدسي، وهو ما يسمى بالإلهام عند الشعراء والتجلي أو الكشف عند الصوفية، وهي حال تختلف في قوتها وشدة نفاذها بين فرد وأخر تبعا لشدة تركيز الملكات التصورية للذهن، وفيها يكون الشاعر والصوفي في حالة استغراق أو حلم تبلغ

مداها عند الصوفي ببلوغ حال الفناء التام وامتزاج بعالم الحقيقة حيث النقاء والنور، وهي غاية الصوفي ومنتهى أمله.

2- يحاول الششتري – هو ومن معه من دعاة الوحدة- ضم شتات كل العالم في إطار وحدة شاملة، ووضع كل الأشياء والشخصيات المختلفة تحت قانون عام في إطار منهج شامل يحيط بروح كل الكون يسمى« الوحدة المطلقة»، أو «وحدة الوجود» وهو إذ يصل إلى هذه الحقيقة لأن اطلاعه المتسع لذرات الكون تتيح له ذلك. إن فلسفة هؤلاء وأشعارهم في مبدئها وأساسها واحدة يمكن تلخيصها في أن الحقيقة الوجودية واحدة أزلية أبدية ومطلقة لا تعدد فيها ولا تكثر، لأن التعدد وهم تصطنعه مدركاتنا الحسية والبشرية، ويكون الوصول إلى هذه الحقيقة بأحد هذه الاعتبارات: إما بالإتحاد وهو فرض خالق ومخلوق، أو مكوِّن ومكوَّن، فالأصل أن هذين الركنين متحدان أي شيء واحد. وإما بالحلول: وهو فرض ركنين كذلك: حَال ومَحَل فيه. فالخالق يحل في أي مخلوق شاء ليتحد به. وإما بوحدة الوجود وهي نمو طبيعي لفكرتي الإتحاد والحلول، فيذوب الخالق والمخلوق فلا هذا ولا ذاك أي رفض لمبدأ الإثنينية – أصلا- ليكون ركنا واحدا فقط وهو الوجود.

3- إن حيرة الصوفي تصنع فراغ الذات اتجاه الحقيقة، غير أن الصوفي ما يلبث يحول هذه الحيرة إلى مفهوم فلسفي يؤسس علاقة يرضاها ويعمل بها، لكي يكون تأسيسا خاصا جدا لعلاقة الإنسان بالوجود والحقيقة الإلهية، وهنا تكمن لذة الصوفي وغاية رضاه، ذلك أن التصوف شوق الروح إلى الله تعالى، وهو الحب الإلهي المجرد من المنافع والغايات المادية، حتى من الفردوس والجنات والنعيم.

4- احتوت القصيدة على مقاصد طريق العارفين وتعريف أحوال الرجال وقد جزأها الشاعر ثلاثة أجزاء: الأول في تعيين المطلوب وما يطلب به وما يقوم فيه ووجه المعاملة في ذلك نفيا وإثباتا، وهذا من أولها إلى قوله(أمامك هول فاستمع لوصيتي). والجزء الثاني منها(فكم واقف أردى) وقد ذكر فيه آيات العقل وتطويره بالمحاسن والقبائح وما يعرفه فيه. والجزء الثالث في الأمور التي اكتسبها العقل لذويه من

نقص أو كمال وتضمن ذلك تعريف جماعة من الرجال والشخصيات الصوفية والفلسفية.

5- إن الإشكالية التي تطرح نفسها بحدة على الفيلسوف الصوفي هي صعوبة التوفيق في فكرة وحدة الوجود بين إمكانية الاتصال بين الإنسان وخالقه عن طريق الإتحاد أو الوحدة أو الحلول، وبين المحافظة على وحدانية هذا الخالق في مفهوم الشريعة الإسلامية، وهي وحدانية لا تلغي معها ثنائية الحق والخلق، ولكن الششتري يحاول الفصل في هذا بدعوة جلية آخر القصيدة بأخذ العلم مباشرة منه هو، ليقدم حلا لهذه الإشكالية محافظا على مبدأ السرية في أخذ العلوم الصوفية العرفانية. وفي هذا نلحظ تضخما للذات لدى الشاعر تجاه الحقيقة والآخرين وهو تضخم يتأسس على وهم امتلاك الحقيقة، في حين أن هذه الأخيرة غير متملكة بشكل مطلق ونهائي.

ثانيا: النتائج الفنية والجمالية: على الرغم من أن الشاعر فيلسوف صوفي، وعلى الرغم من أن القصيدة في مضمونها وغرضها عبارة عن درس صوفي فلسفي إلا أن قالب الشعر الذي صبت فيه، وروح الشاعر المبثوثة داخل المفكر الصوفي قد بدا وتحقق من خلال جملة من المعطيات الفنية، والتي جعلت هذا النص يقترب من الشعرية والفنية والأدبية بدرجة كبيرة، توقظ فينا رسالات تستحق الإعجاب وتستدعي الملاحظة والدراسة، فكان أهم ما وقف عليه البحث في هذا المجال ما يلي:

1- اتسم المعجم الدلالي بالتنوع في القصيدة، غير أن هذا التنوع المعجمي قد انزاح مثل ما هو حال أية كتابة صوفية عن الدلالات المعروفة إلى أخرى تتصل اتصالا وثيقا بعالم المتصوف وحده، حتى وإن أثر ذلك في لملمة وتجميع تلك الدلالات ومحاولة ضبطها تحت معاجم مناسبة، وكل ذلك يكشف عما في تنوع المصطلح الصوفي من تعبيرية عالية لخلجات الروح ومحاولة رصدها ضمن مجموعة أفكار وشطحات فلسفية صوفية، وهذا ما حاول الشاعر بيانه في نونيته.

2- إن التعبير عما هو غير محسوس بمثال محسوس يضفي على الرمز الصوفي قابلية للتأويل بأكثر من وجه مما يجعله بقدر ما يعطي من معناه فهو في الوقت ذاته يخفي شيئا أخر.

3- إن القصيدة صورة كبرى لحياة الصوفي لرسم هذه الصورة قام الشاعر بتنسيق وربط فسيفساء تلك اللوحة الكبرى عن طريق صور جزئية عبرت كل واحدة منها إما بالاستعارة أو الكناية أو التشبيه عن محتواه دون أن ينساق الشاعر وراء تلك الصور البيانية بشكل قوي، بل كانت الفكرة هي التي تقوده وتحدد مسار تعبيره، أي أن اهتمامه بالتصوير كان أقل بكثير من اهتمامه بالفكرة. وهذا ما ذهب إليه (ابن الخطيب) في كتابه "روضة التعريف بالحب الشريف"، حين عرض لهذه القصيدة في سياق الحديث عن المتطرفين من الصوفية، إذ رماها بالخمول من باب اللسان، وأيد هذا الرأي أحد المهتمين بالأدب الصوفي في العصر الحديث وهو(سليمان العطار) في كتابه "الخيال والشعر في تصوف الأندلس" حين أيد رأي ابن الخطيب وقال بأن القصيدة خالية من أية لمحة فنية.

غير أن الدراسة قد أثبتت أن هذا الرأي متطرف جدا ومجحف في حق هذه القصيدة، لأن الجماليات التي اكتشفت فيها تنفي ذلك إلى حد بعيد.

4- شكلت التداخلات النصية بين هذه القصيدة وغيرها من النصوص عاملا مهما في محاورة هذا النص والملاحظ أن جزءا كبيرا من هذه التناصات كانت نصوص صوفية، ذلك أن النص المدروس صوفي، وطبيعي أن تكون النصوص المتعالقة معه كذلك، هذا إذا لم ننس أن التناص يعبر عن موروث الشاعر الثقافي، ولقد تحقق أن الفكر الششتري ومدرسته فلسفية صوفية.

5- تنتمي القصيدة إلى أحد البحور الخليلية(بحر الطويل) على أن اعتماد الشاعر القصيدة العمودية في ديوانه كان قليلا مقارنة بما كتبه في الأزجال والموشحات. ذلك أنه قد نشأ في وقت ازدهر فيه هذا النوع من الشعر في الأندلس والمغرب، حتى أن ابن خلدون يعتبره رائد الزجل في عصره.

أما ما يمكن أن يجمع بين محوري النتائج الفكرية والفنية هو أن الشاعر قد وفق إلى حد بعيد في صب تلك الفلسفة والأفكار الصوفية في قالب فني شعري، مما يجعل الامتزاج بين الفكر والأدب يتحقق في النونية بشكل يضيق الفجوة بين ذلك التعارض المتوهم بين الفن والعلم، ولعل ما يفسر ذلك أن التصوف والشعر لا

يتناقضـان؛ فالتجربـة الصـوفية أو الشـعرية تنخـرط فـي وعينـا الـداخلي الـذي لا يفتـأ يأخذ في الاتساع والتمدد والنمو حين نطـرح مـا كنـا منغمسين فيـه من تفاهـة الحيـاة اليومية وابتذالها ونركز وعينا الـذي أصـبح أكبـر امتلاءا وكثافـة وقد غدونا قـادرين على تقديم بديل لهذا الواقع نحو اتجاه اكتشاف الحقيقة.